١٣ ـ الفـــن

للكاتب الفرنسي بول هيزيل

بقلم الدكتور محمد بهجت

يا لها من إشارة بارعة ! أيمكن أن يكون ولاء أعظم وأوقع فى النفس من أن يرجع بمعاصر إلى طليات الماضى حيث يقرنه إلى رجل من رجالاته الأفذاذ الذين لمع نجمهم وتألق تألقاً فريداً ثم يبلغ منه التأثر لمجرد شعوره بالاتصال الحسى بهذا العبقرى الشبيه بأنصاف الآلهة (يوسان) . وعاود رودان حديثه قائلا :

لم يرض بوفى دى شافان عن التمثال الذى عملته ، وكان ذلك من أمرّ ما غصنى فى حياتى الفنية . لقد ظن أنى صنعت له تمثالا مسخاً . ومع هذا فأنى مؤمن أنى أودعت فى التمثال كل الحماس والإجلال الذى شعرت به نحوه » .

ودفعنى بوفى دى شافان إلى التفكير فى تمثال جان بول لوران Jean Paul Tauren الذى يوجد بالكسمبورج أيضاً . إنه ذو رأس مستدير ووجه يهم بالحركة ، ويفيض منه الحماس يكاد لايتردد فيه نفس — إنه من مواطنى الجنوب ، عتيق غير معقول تظهر عيناه كأنهما مأهولتان بأخيلة بعيدة — ذلك هو مصور العصور التى كانت أدنى إلى الهمجية حيث كان الرجال أقوياء زاخرى العواطف . قال رودان :

« كان لوران من أقدم أصدقائى . وقفت له كتمثال لواحد من الميروفيين[1] الذين كانوا يعاونون ساعة موت القديسة جنيفياف ، وذلك بلوحته الموجودة الآن بالبانتيون « كانت محبته لى خالصة على الدوام . وهو الذى تحصل لى على الأذن بعمل رهائن كاليه . ومع أن الصفقة لم تعد على بنفع مادى إذ أنى قدمت ستة من التماثيل المعدنية بالثمن الذى عرض لواحد منها فقط ، فإنى مدين له بالامتنان العظيم العميق لأنه حفزنى لخلق عمل من أجل أعمالى .

« وكم كان سرورى عظيما بأن أعمل له تمثالا . ولكنه عتب على عتابا رقيقاً لأننى أظهرته بفم مفتوح ، فأجبته بأنى رأيت من تصميم جمجمته أنه ربما انحدر من سلالة القوط الأسبان . وأن هذا الضرب من الناس يمتاز بكبر الفك الأسفل . وإننى لست على بينة مما إذا كان اقتنع بصحة ملاحظتى العلمية التى ترتكز على علم الأجناس » .

وأبصرت فى تلك اللحظة بتمثال لفالجوير Falguière أنه متوقد ، ذو خلق ثائر ، بوجهه كثير من التجاعيد والعجز كأنه أرض اجتاحتها العواصف . أما شاربه فشارب امرئ متذمر ، وأما شعره فكث قصير . قال عنه رودان إنه كان ثوراً صغيراً . لاحظت فيه غلظ الرقبة حيث تبدو أثناء الجلد وتضاعيفه كأنها غبب الماشية ، وكذلك جهته المربعة . أما رأسه فمائل عنيد ، على وشك أن يشيح بحركة إلى الأمام . حقاً إنه ثور صغير ! كثيراً ما كان رودان يتمثل بتشبيهات من المملكة الحيوانية . فمثلا إذا كان الإنسان ذا رقبة طويلة وحركات آلية فهو الطائر يتذبذب يمنة ويسرة ، وإذا كان جد ظريف كثير الحركات الرشيقة فهو كلب الملك شارل وهكذا . ومن شأن هذه التشبيهات أن تسهل العمل لمن يبحث وفى تقسيم سحن الناس وسيماتهم أقساماً عامة . ثم طفق رودان يشرح لى الظروف التى أدت به — إلى فالجوير قال :

« كان ذلك عندما رفضت جمعية الآداب قبول تمثالى « بلزاك » أصر فالجوير الذى تولى عمل تمثال آخر لبلزاك من بعدى على أن يبين لى بحافز من صداقته أنه لم يضلع بتاتاً مع أولئك الذين أرادوا النيل من قدرى وسمعتى . فدفعنى حديه إلى عمل تمثال له . وعند ما انتهيت منه ورآه قدّره تقديراً وعدّه فوزاً عظيما . وإنى لأعلم أنه كان يدفع عنه نقد الناقدين فى حضرته . وفى مقابل ذلك عمل لى تمثالا بدوره فجاء جد ظريف » .

(١) نسبة إلى ميروفك إسم مؤسس أول أسرة حكمت دولة الفرانك بفرنسا فى القرن الخامس .

وعند ما كنت أهم بالانصراف وقعت عيني على نسخة شبهية [1] لتمثال برتلو (Berthelot) الذي عمله رودان قبل وفاة الكيميائي العظيم بسنة واحدة فقط

كان العلامة الكبير يبدو كأنه مطمئن إلى تأدية رسالته . إنه يتأمل . إنه منطو على نفسه ، وحيداً يواجه العقائد البالية المتداعية ، وحيدا قبالة الطبيعة التي تهدّ إلى بعض أغوار أسرارها ولكنها ما زالت جد غامضة ؛ وحيداً على حدود الآفاق الغير محدودة . جبينه معذب ، وعيناه المسبلتان مليئتان بالهموم وكأن هذا الرأس الجميل رمز للفكر المصري وقد ازدحم بالعلم والمعرفة وأضناه التفكير ، ينتهي به الأمر إلى التساؤل « وما جدوى كل ذلك » .

احتشدت برأسي الآن كل تلك التماثيل التي كنت أعجب بها والتي كان يتكلم عنها رودان ، وقد بدت لي كأنها وثائق قيمة عن عصرنا الحاضر ثم قلت :

« إذا كان رودون كتب مذكراته عن القرن الثامن عشر ، فقد كتبت أنت مثلها عن أواخر القرن التاسع عشر . أما أسلوبك فأخف وأغلظ من أسلوب سلفك ، وأما تعابيرك فأقل رشاقة ، ولكنها طبيعية صادقة — إذا جاز لي أن أقول ذلك إن الشك والإلحاد اللذين كان واضحاً بيناً في القرن الثامن عشر ، واللذين كان مليئاً بالتهكم والسخرية أصبح فيك اليوم عنيفاً حاداً . كانت أشخاص أودون أميل إلى الاجتماع والتمازح والتنادر ، أما أشخاصك ، فأكثر انصرافاً إلى أنفسهم . كانت أشخاص أودون تنتقد عورات أنظمة الحكم ، أما أشخاصك فيظهرون كأنهم يتساءلون عن قيم الحياة الإنسانية نفسها ويشعرون بالآلام والرغائب التي لم تتحقق »

فأجابني رودان رداً على ذلك :

لقد بذلت كل ما في وسعي ، لم أكذب ولم أغرر بمعاصري قط . لم ترق تماثيلي في أعين الناس ، لأنها على جانب كبير من الإخلاص ، ولكن مما لا ريب فيه أن بها حسنة واحدة هي الصدق ، فليعوضهم هذا من الجمال »

(انتهى)

دكتور محمد بهجت
قسم الباثيتك

(١) نسبة إلى الشب أو الشبه وهو ضرب من النحاس المخلوط .

ظهر حديثاً كتاب :

دفاع عن البلاغة

للأستاذ

أحمد حسن الزيات

وقد زيدت عليه فصول لم تنشر

يطلب من إدارة « الرسالة » ومن المكاتب الشهيرة وثمنه ١٥ قرشاً